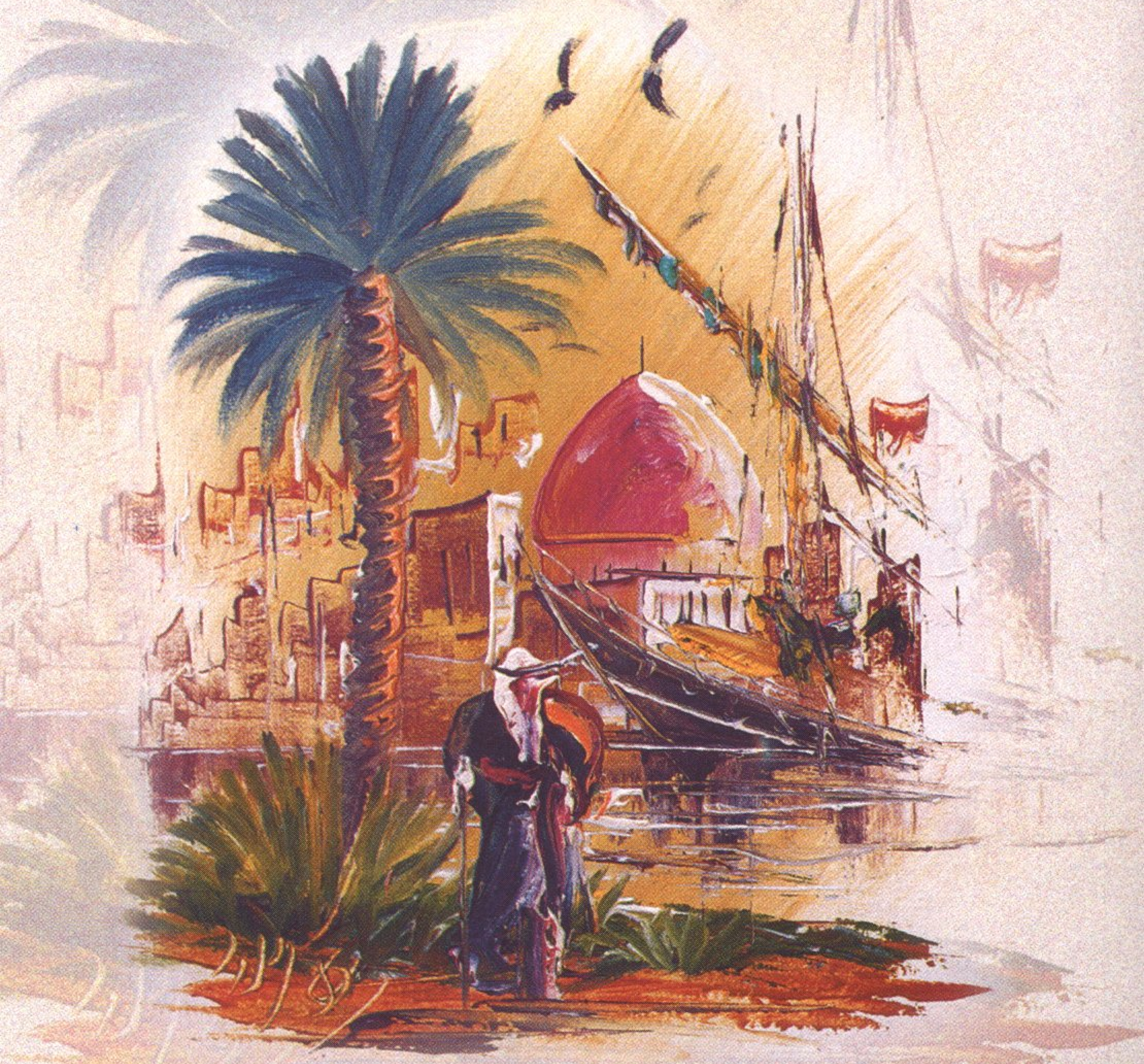
الشيخ فتح الله بن علوان الكعبي

أحداث البصرة
في القرن الحادي عشر الهجري

«زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر»



الدار العربية للموسوعات

أحداث البصرة

في القرن الحادي عشر الهجري

زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر

أحداث البصرة

في القرن الحادي عشر الهجري

زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر

فيما جرى لحسين باشا ابن افراسياب حاكم البصرة

تأليف

الشيخ فتح الله بن علوان الكعبي عفا الله عنه

١(وهي رسالة تحتوي على وقائع وحروب تاريخية هامة)
(حدثت في البصرة أواخر القرن الحادي عشر)

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى 1924 م
الطبعة الثانية 2002 م

كافة المراسلات تعنون باسم:

الدار العربية للموسوعات

ص.ب: 511 - الحازمية - هاتف: 05/952594 فاكس: 05/459982

هاتف نقال: 03/388363 - 03/525066

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده والصلوة والسلام على من لا نبي من بعده.

(وبعد) لقد عثرت ذات يوم وأنا أنقب بين كتب مكتبة **آل باش أعيان العباسي الغنية بكتبها**، الثمينة والمشهورة بمجلداتها وباحتوائها على كل أثر مفيد وكتاب قديم وجديد على هذه الرسالة المسماة «**زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر**»[1] الصغيرة الحجم ذات النفع الجم فشعرت ـ بعد أن أتممت مطالعتها ـ

(١) اللهنة هي الأكلة في غير الوقت المعتاد كالأكلة قبل الغذاء وقبل العشاء ويقال لها الآن (جواعة) وإنما سمي هذا الكتاب بهذا الاسم لأن المسافر يستقل به عن نقل كتاب آخر والمقيم معه الكتب الكثيرة فهو يتلهن به إذا أراد.

بواجب طبعها ووضعها بين أيدي الأدباء للاستفادة منها خدمةً للأدب وشجعني على ذلك ما رأيته من مساعدة الأديب صاحب السعادة الشيخ محمد أمين أفندي عالي باش أعيان العباسي مساعدة فيها يرجع فضل نشر هذه الرسالة لحضرته قبل كل أحد فقرنت القول بالفعل وها أنا أضعها بين أيدي الأدباء ولا أقصد من وراء عملي هذا جزاء ولا شكوراً سوى خدمة الأدب والأدباء وفقنا الله لما يحبه ويرضاه أنه سميع الدعاء.

ناشر الطبعة الأولى

طالب غني ـ صاحب مكتبة الفيحاء ـ البصرة

البصرة في 21 شعبان سنة 1341 هـ

ترجمة المؤلف عفا الله عنه

هو فتح الله وكنيته أبو علي ولقبه جمال الدين بن الشيخ علوان بن الشيخ بشار بن الشيخ محمد بن الشيخ عبد الحسين. الكعبي نسباً. القباني مولداً ومنشأً. ولد سنة (١٠٥٣) ثلاث وخمسين بعد الألف وهاجر إلى شيراز شاباً سنة (١٠٧٩) تسع وسبعين بعد الألف واشتغل بها في طلب العلم. أخذ الصرف عن السيد نعمة الله الجزائري والنحو عنه أيضاً ثم عن الشيخ حسن بن الشيخ محمد الجزائري ثم عن الشيخ محمد بن عبد الحسين الجزائري. وكان ذلك في المدرسة المنصورية. والعروض عن الشيخ أحمد المدني رحمه الله. ثم انتقل إلى المدرسة اللطيفية وأخذ العربية عن السيد عزيز الجزائري ابن عم السيد نعمة الله المذكور. والمنطق عن ميرزا علي رضا بعد

مدرسي المدرسة المنصورية وعن الشاه أبي الولي رحمه الله. وأصول الفقه عن السيد نسيمي رحمه الله. وكذلك علم رواية الحديث ومعرفة الرجال عنه أيضاً. ثم رجع إلى القبان واشتغل على أبيه المرحوم الشيخ علوان في علم الكلام والفقه وبعض الحديث. ثم تولى قضاء البصرة مدةً فرأى القضاء مخلاً في دينه فعافه ورجع إلى القبان بعد أن توفي أبوه رحمه الله وذلك في سنة (١٠٨٠) الثمانين بعد الألف من الهجرة ثم اضطربت أحوال القبان بسبب ما وضع لأجله هذه المقامة واستمر التعطيل (عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده) وله شيء من التآليف وشيء من الشعر. فمن تآليفه: الدرر البهية في شرح الأجرومية في النحو وهو شرح لطيف صغير الحجم كثير الفوائد. وشرح الفتوحات في المنطق ورسالة في علم العروض. ورسالة في سبب الخلف والخلافة. ورسالة في القراءة. وشرح شواهد قطر الندى. وغير ذلك ومن شعره في الغزل:

من لصب غلب الشوق اصطباره

فلذا باح وللحب اماره

لعبت في عقله أيدي الهوى
فلعذر خلع اليوم عذاره
خلط اللاحين في سلوته
غلطاً فالحب قد أضرم ناره
يا لقومي لأخيكم من رشاً
صاده فرد فمن يطلب ثاره
حكمت في قلبه الحاظه
حكم من ليس له طرز الإماره
لا تلوموني إذا مت به
فحياتي في هواه مستعاره
هو كالغصن إذا ماس لنا
وكبدر التم حسناً ونضاره
يا غزالاً من ربي كاظمة
كدر الخاطر مذ أبدا نفاره
كان يأتي منك طيف في الكرى
ولأمر منع اليوم مزاره
ما على مثلك لو واصلنا
فعسى يطفي من القلب شراره
إنما شرط المحبين الوفا
ووفاء بسوى الوصل خساره

جرت بالحكم على أسر الهوى
حين أبديت من الطرف احوراره
وأجافي كل أرباب الهوى
من يكن ما بي من العشق شعاره
أنا من كابد أعباء الهوى
وحشى حاليه حلواً ومراره
فالهنا في وصل من تعشقه
والعنا إن صد أو أبدا ازوراره
يا مناخ الحي من كاظمة
جارك الله من الويل غزاره
ورعى فيك لويلات لنا
حيثما الشيح نحاكي وعراره
ورعى مجلسنا في ظله
وسقى منه الخزامى وبهاره
زمن قد غفل الدهر به
وعيون الواشي من خلف الستاره
كلما قلت له من صفة
فهو معنى حاول اللفظ اختصاره

(ومنه في العذار)

ولقد أقول لمن يلوم بحبه
لما بدا منه العذار ودارا
نبت العذار بنار صفحة خده
هذا الذي ترك العقول حيارىٰ

(ومنه مضمناً في الشيب)

وقلت لليل شعري دم فأني
رأيت الشيب ليس له قرار
فأنشد قائلاً بشجيّ لفظ
كلام الليل يمحوه النهار

(ومنه فيمن أهدى له باقة بابونج)

لما أتانا السعد وولى الجفا
أهدى لنا باقة بابونج
فريحه من ثغره مغتذٍ
ولونه من لون صب شجي
فعادلت نعمته عندنا
ما وهب الواهب للمرتجي

(ومنه في الحماسة)

دعاني أطيل البت قد عظم الأمر
إلا واتركا لومي فقد ضربي الصبر
ألـم تـر يـا جـسـمي تبدى نـحـولـه
وخـلـطـه مـمـا أقـاسي جـوى ضـر
أرى نفثة المصدور ما بين أضلعي
حواها لغام البت فانجرح الصدر
رويـداً فقد قـاسيتمـا بعض ما بـه
أصبت لانت الحر أو فلك العذر
وما ذاك من شوقي إلى ربة الحمى
وكـل فـتـاة قـبـل فـكـأتـهـا الـبـدر
ولا اللهو يصبيني ولا قرع برنط
شدا فأجابته القنا البيض والسمر
ولا حـزن غـيـلان وقـيـس وعـروة
عـراني ولا مـا قـد أصـيـب بـه بـشـر
ولـكـن أفـكـاري تـصـاعـد تـارةً
فيبدو لـهـا أن ليس ينفعها الفكر
تـروم ولا كـفـران لله أنـهـا
عـزيـزة أقـوام لـهـا الـنـهـي والأمـر

وتضمر عزمات المعالي وكلما
تصوره الآراء ما متمها الدهر

(في رثاء السيد محفوظ وأخوته السيد جود الله موالي الحويزة) (رحمهما الله)

حزني عليك مدى الزمان مقيم
حاشاه أن يثنيه عنك ملوم
يا راحلاً عنا استقل بضعنه
صيرتنا في النائبات نعوم
جادت لفقدك كل عين ثرة
وبكل قلب قرحة وكلوم
نبكي وما يجدي البكاء وإنما
جهد المقصر دمعه المسجوم
ونود لو سمح الزمان بمثل أن
نفديك من حتف وأنت سليم
ايه خليلي إن رأيت وإن ترى
والأمر في كل الورى معلوم
يوماً كمعركة عيات إذ به
قدم الشجاع به وفر لئيم

يوماً تجمعت القبائل كلها
فيه وأمر ضلالهم مبروم
إن تسألن عنه فربة مخبر
يخبرك أن الجيش كان عظيم
قد أقبلوا زمراً كأن سيوفهم
برق ومشتبك الرياح غيوم
لم أنس محفوظاً غداة لقاهمو
فرداً وجيش عداته مركوم
من بعد أخوته الذين تقدموا
في الحرب وهو مؤجج مضروم
فسطوا على الجمع الكثيف كما هوت
شهب على جمع الغوات رجوم
ركعوا الأسنة خوف قولة قائل
هذا ابن جود الله وهو هزيم
عرفوا المنية ثم خاضوا قعرها
أن القرار مع البقاء ذميم
ساقوا العدو بما يساقي مثله
لو أن حربهم السجال تدوم
حتى هوى وهوى فكان فقيدهم
كبر المصاب إذ الفقيد زعيم

ويـل ابـن أم أبـي كـثـيـر مـاروا
مـن ذا الـذي هـو بـيـنـهـم مزعـوم
هـذا الـذي تبكـي عليه صحـائف
تـتـلـى واذ كـار لـه وعـلـوم
هـذا الـذي تبكيه أضياف الدجى
والـمـعـدمـون وأرمـل ويـتـيـم
هـذا الـذي تـبـكـيـه آسـاد الـشـرى
مـن قـومـه فـلـهـم عـلـيـه وجـوم
ويـل لأمـكـم أن الـذي يـؤتـم بـه
فـي ثـاره شـبـه الأسـود قـروم
هـيـجـتـم أسـداً تـقـادم عـهـدهـا
بـالـحـرب حـركـتـم فـحـن فـطـيـم
لا يـرهـبـون عـلـمـتـم خـطـيـكـم
ولـهـم عـلـى أخـذ الـقـضـا تـصـمـيـم
والله مـا أنـتـم بـاقـران لـهـم
فـي الـحـرب لـكـن الـقـضـا مـحـتـوم
فـلا بـكـيـن عـلـيـك مـسـتـور الـحـيـا
إن الـتـجـلـد فـي الـمـحـبـة لـوم
ولا نـظـمـن عـلـيـك شـعـراً لـم يـكـن
أبـديـه لـولا يـومـك الـمـشـؤوم

ولا سألن الله في جنح الدجى
غفرانه لك أنه لرحيم
ولادعون بأن يظلك جنة
يلقاك منها رحمة ونعيم

وقتل المولى محفوظ رحمه الله في شهر ربيع الأول سنة (١٠٩٠) التسعين بعد الألف من الهجرة.

(ومنه قصيدة في مدح السادة أولاد السيد جود الله المذكور)

سعدلي في حيكم بعض الأرب
قف حماك الله من شر العطب
واستمع مني وخذني مالكاً
إن ما في الصدر تبديه الكتب
سعدان جزت على وادي الحمى
حيثما القاطن ممنوع الحجب
عج على بيت رفيع سمكه
واسعاً أرجاؤه فيه الرغب
عصمة الخائف مألوف الندى
منية السفر إذا اشتد الشغب

ثم جز تلق ليوثاً خمسة
خير موجود من أبناء العرب
سادة قد شرفوا في العلم والحـ
ـكم والفضل جميعاً والنسب
ورثوا المجد فتىً عن والد
عن أبيه ذا لعبد المطلب
فاغضض الطرف وقف مبتدياً
ثم بلغهم سلامي بأدب
وقل القن المعنّىٰ فيكم
ذاق من بعدكم ما لا يحب
سعد تلقاهم كما تهوىٰ على
أن فيهم سيداً عالي الرتب
ذاك إدريس فصوب صوبه
فعسى تحضى بحسن المنقلب
والثم الأرض وقبل كفه
ثم ناوله كتابي عن كثب
إن فيها يا بني من حاز العلا
وحوى الفخر ونعم المكتسب
كان لي معكم أخاء ثابت
فعلام الهجر من غير سبب

أطلب القرب وتولوني القلا
وعجيب لمحب لا يحب
إن يكن ذنب ولا أعرفه
فالكريم الأصل يعفو ويهب
أو يكن ما قبله واستكثروا
فيك ما يعطوه من نوع القرب
ذاك لله ولا من به
إن قليلاً أو كثيراً يكتتب
منع ما تعطيه ما يمنعني
عنكم فالخالق الرزاق رب
والذي حج الملبون إلى
بيته ما بين وخد وأدب
ما توهمت وقد عاشرتكم
يحصل الناي إلى حين العطب
فاذكروا العهد الذي بتنا على
حفظه فالحر ما قال وجب
واعلموا أن بنائي لاخ
صالح والحق أن لا يخترب

(وقال في مدحهم من أرجوزة فايقة)

أتعذرين الصبي أم لم تعذري
فليس ما جئت به بمنكر
كم من فتىً ذي أدب رشيد
يتمه حب الحسان الغيد
فصار في العشق خليع الرسن
وطلقت عيناه طيب الوسن
أستغفر الله وأستعفيه
من فرطات خاطر السفيه
لكنها براعة استهلال
في ذكر بعض من جفا الموالي
يا سادةً أعددتهم مذخوري
لحادثات نوب الدهور
كنت حسبت ودكم يدوم
والحال والصحبة تستقيم
وأنكم ترعون لي ذمامي
لأن ذا من شيم الكرام
فمذ زلقت سمتموني بالجفا
كأنني من ودكم على شفا

فإن عثرت فالجواد يعثر
والحر ذو الطبع الكريم يعذر
ألم أكن جاركم الصفي؟
ألم أكن خلكم الوفي؟
ألم أكن منكم محل الولد؟
ترعون عيني كرماً ومشهدي
فما الذي أوجب هذا الهجرا
أرضيتموا زيداً به أم عمرا؟
كأنني انهزمت من كارون
حتى رميتم جملي بالبين
لله ما أحلى الزمان الماضي
بدل بالصدود والأعراض
حبكم في القلب والفؤاد
من أجله طُوحت في البلاد
أقول هنا أدبي وهنا
وأنتم المقصد بهذا المعنىٰ
أهكذا يكون حال الخل؟
ومثلكم يبت حبل الوصل
أم كيف طاب لكم تباعدي
من بعد ما كنا كما الفراقد

كل عزيز بعدكم قد هانا
يا ليت يوم هجركم لا كانا
إن رمت سلواناً يقول قلبي
هيهات ما هذا فعال الحب
أورمت كتمان الذي بي منكمو
لا أستطيع حر نار تضرم
هذا وما يقضي به العليم
نرضى به إذ حكمه محتوم
اسأله العفو ومعه العافية
عافية من كل سوء كافيه
واستيعذ من شرور الإنس
والجن والهوى وشر النفس
قد قلت ما قلت وأني أدري
أني أبيع الدر من لا يشري
وإنما هي نفثة المصدور
قد ضاق عن كتمانها ضميري
ها هي لديكم كشفت قناعها
وبسطت نحوكم ذراعها
تدعو لكم بلغتم الآمالا
وزادكم ربكم أفضالا

إلى غير ذلك من النظم والنثر ولم أقف على تأريخ وفاته رحمه الله وعفا عنه بمنه وكرمه.

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أجمل ما جال في ميادين الخواطر. وأكمل ما تكمل به مجموع الحواس والمشاعر. وأفضل ما ارتضعت لأجله الأقلام من ثدي المحابر. فسحبته على صفحات الأوراق وبطون الدفاتر. ونقشت به نقشاً يتلى في المحافل والمحاضر. ورسمت درساً واجباً على الأوائل والأواخر. حمد الله سبحانه بما له من المحامد والمذاكر. وشكره على نعمه المترادفة وفضله المتواتر. والصلاة والسلام على رسوله النبي الأمي المبعوث في آخر الزمان إلى البادي والحاضر. وعلى آله سلالة النبوة وعنصر المفاخر. الذين برزوا في دوحة العليا طاهراً عن طاهر. فسادوا جميع الخلائق كابراً عن كابر. صلوات الله تترى عليه وعليهم من الأول إلى اليوم الآخر.

(وبعد) فيقول: الفقير إلى الله فتح الله بن علوان الكعبي سامحه الله وعفا عنه لما دخلت سنة (١٠٧٨) ثمان وسبعين بعد الألف وعظمت أراجيفها. وعمت أخاويفها وتجمعت فيها جل المصائب. من جميع النواحي والجوانب. فكانت سنة قد عظم شرها. وعدم درها. ومنع قطرها. وكثرت حروبها. ونزر شؤوبها. فتلاطم أمواج بلاها. وتراكم عجاج غلاها. فأحببت أن أرسم أسطراً تكون بين التذكرة المتلوة. والمقامة المجلوة. إذ كان حلول هذه المصائب المذكورة بحلولها. وقفول هذه العجائب المسطورة بقفولها.

فنقول: في مسترسل هذه السنة المذكورة. كان توجه الروم من أسطنبول إلى البصيرة[1] وكان توجههم

---

(١) والبصيرة تصغير البصرة وهي بلد معروف على شاطىء شط العرب وهي البصرة الجديدة وإليها ينتهي مصب دجلة والفرات وملتقاهما عند القلعة المعروفة بالقرنة الآتي ذكرها فيما بعد.

وأما البصرة العتيقة وهي التي عمرها المسلمون في زمن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقال الشعبي فيها: مصرت البصرة قبل الكوفة بسنة ونصف وفيها الجامع المنسوب إلى علي كرم الله وجهه فهي الآن خراب. حكي أنه كان فيها سبعة آلاف مسجد. وحكي أنه اشترى فيها التمر خمسمائة رطل =

= بدينار. وقال القزويني في «عجائب المخلوقات» إن من عجائب البصرة أنك لو التمست ذبابة على رطبها على النخل أو في جواخينها أو معاصيرها ما وجدت. وذكروا أن ذلك لطلسم. ومنها أن الغربان القواطع في الخريف تسود جميع نخل البصرة وأشجارها حتى لا يرى غصن إلا وعليه منها. ولم يوجد في جميع الدهر غراب ساقط على نخلة غير مصرومة ولو بقي عليها عذق واحد ومناقير الغربان كالمعاول والتمر في ذلك الوقت على الأعذاق فلولا لطف الله تعالى لتساقطت كلها بنقر الغربان ثم تنتظر صرامها فإذا تم صرامها رأيتها تخللت أصول الكرب فلا تدع حشفة إلا استخرجتها فسبحان اللطيف بعباده.

وأحد أنهارها المعبورة نهر (الأبلة) وأظنه العشار[1] الآن وأن الأبلة هي البصرة الآن. وسيأتي بعض من صفة نهر الأبلة في شعر التنوخي إن شاء الله تعالى.

أخبرني بعض العلماء أنه رأى في بعض التواريخ أن الذي حفر العشار شهبخ أحد ملوك الفرس والله أعلم. ويشق البصرة نهر خارج من شط العرب اسمه (العشار) ينتهي إلى أقصاها من جهة القبلة. ويقال لما عن يمينه من جهة الشمالية (نظران) ويخرج منها أنهار أخرىٰ إلى الجهة الجنوبية عليها =

(١) الأرجح أن نهر الأبلة ـ بتشديد اللام ـ يقع شرقيّ مدينة البصرة في القرية المسماة المطوعة.

. . . .

- محال معمورة والبصرة عبارة عن تلك المحال. منها وهي أولها (بريهة) ثم (تومة العباس) ثم (السيمر) ثم محلة (أهل الدير) ثم (الحوز) ثم (المكسار) وهي مرمى السفن وموضع ما يدخل إلى البصرة من متاع الهند والسند واليمن والبحرين وغيرها من البلاد من القماش والأبازيز وما يحمل من بلاد أردم من الطعام وغيره وهو الموضع الذي يؤخذ فيه العشور.

ومن محالها المعمورة (المشراق) و(سوق الغزل)[1] و(محمد الجواد) و(عضيبة) و(نبة الجبل) إلى غير ذلك من المحال. وأسواقها معمورة واللسان يقصر عن وصفها بالحسن. وما يريد أن يذكر من صفة بلد يسلم الماء عليها في اليوم والليلة مرتين. وفيها من الفواكه والثمار ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين. يحيط بكل هذه المجال المذكورة مع الموضع المعروف بنظران سور حصين بجميع جهاتها. هذا نفس المدينة. وأما توابعها فربما نذكر بعضهم فيما يرد من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وأما (حسين باشا) فهو ابن علي باشا بن افراسياب الديري نسبة إلى الدير إسم موضع شمال البصرة. أقول: مررت بهذا الموضع المعروف بالدير فرأيت فيه منارة يزعم من هناك أن تلك المنارة بناء الجن وأنها أصبحت مبنية وهذه النسبة أخبرني بها بعض خدام حسين باشا. وذكر عبد علي بن رحمه =

(١) المعروفة حالاً بمحلة (سوق الدجاج).

. . . .

= الحويزي في كتابه «قطر الغمام» أنه من آل سلجوق ملوك الروم وأن أهل الدير أخوال لافراسياب. قال: وآل سلجوق هم ثلاث طبقات طبقة في الروم وطبقة في عراق العجم وطبقة في كرمان. فالذين في الروم هم أربعة عشر رجلاً. داود بن سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق وقليج بن أرسلان بن سليمان وكيخسرو بن قليج بن أرسلان وكيكاووس بن كيسخرو وكيقاد بن كيخسرو وكيقاد بن فلامرزا بن كيكاووس وعلاء الدين بن كيقاد.

ومنه انتقل الملك إلى عثمان جد آل عثمان وكان ابتداء ملكهم في سنة الثمانين وأربعمائة. وانتهاؤه على رأس السبعمائة. وعلى هذا فمن هنا يؤخذ معرفة الملوك قبل آل عثمان في القسطنطينية والله أعلم.

وسبب حكومة افراسياب في البصرة على ما نقل إلى أنه كان كاتباً للجند المحافظ في البصرة فاتفق رأي أهل البصرة على هجر الحاكم الرومي وكان اسمه علي باشا فقلت مداخله وعجز عن أرزاق الجند المحافظين معه فباع البصرة من افراسياب المذكور بثمانية أكياس رومية والكيس ثلاثة آلاف محمدية على أن لا يقطع الخطبة من اسم السلطان فرضي بذلك افراسياب واشترى البصرة وتوجه الرومي إلى أسطنبول فحكم في البصرة افراسياب ونشر العدل فحسنت أيامه وأحبته الرعية وقوى سلطانه. وفتح في أيامه القبان وكان فيه رجل يقال له بكتاش آغا مستقلاً بالحكم بسبب مداهنته لمن حوله =

. . . .

= من الملوك كحاكم الدورق وحاكم الحويزة السيد مبارك خان وضعف حاكم الروم في البصرة فلما تمكن افراسياب في الحكم غزاه وحاصره فطلب الأمان وسلم إليه البلاد. وفتح في أيامه أكثر الجزائر ومنع ما كان يأخذه السيد مبارك خان من البصرة وقد كانت له جوائز على البصرة يأخذها منها وكذلك منعه مما كان يأكله من شط العرب الشرقية.

وكان ابتداء حكومته في سنة (١٠٠٥) الخامسة بعد الألف. واستمرت حكومته سبع سنين. ثم حكم بعده ابنه علي باشا بوصية منه إليه فأنشأ العدل وقطع الظلم وحسنت سيرته ورفع العلم وأهله وبث العوارف في القاصي والداني وشاعت مكارمه وأحبته الرعية والقواد والعسكر وقصدته الشعراء والعلماء والأشراف ولم يجتمع بباب ملك في زمانه ما اجتمع بباب منهم. وحفظت في أيامه النوادر وحسنت دولته بوجود الشيخ عبد علي بن أحمد الحويزي. وكان نادرة زمانه في جميع العلوم. وله من سرعة الخاطر ما لا يوجد لغيره إلا ما يحكى عن البديع الهمداني. وله في علي باشا وابنه حسين باشا شعر مليح ربما يأتي ببعض من شعره في أثناء هذا الكتاب في الموضع المستحق له.

وكانت أيام على باشا شبيهة بأيام هارون الرشيد من بني العباس في الرفاهية وطلب العلم والآداب والشعر وأمن السبل فهابته الملوك وانقادت له.

وفتحت في أيامه الجزائر بعد أن عجز عنها عسكر السلطان. =

= وفتح كوت معمر من يدي حاكم بغداد وكوت الزكية من يدي حسن ابن النائب. وتوجه إليه عسكر عظيم بأمر شاه العجم وهو شاه عباس الأول وقائده إمام قلي خان وحاصره أشد الحصار. ولحب الرعية له لم يقع في دولته خيانة فعجز عنه امام قلي خان ورجع بعد أن ترك خيامه ومدافعه وأموالاً عظيمة وغير ذلك.

وقد مدحه الشيخ عبد علي المذكور بقصيدة ذكر فيها هذه الواقعة وذكر تاريخ الواقعة في آخر القصيدة بنصف بيت وهو قوله (علي دمر الخان ـ ١٠٣٦) وكان سبب رجوع امام قلي خان عنه أنه ورد إليه خبر وفاة الشاه عباس.

واستمرت حكومة علي باشا خمساً وأربعين سنة. ثم حكم بعده ابنه حسين باشا فسار سيرة أبيه قليلاً ثم خالفه وتجبر في حكومته وبسط يده في الظلم فانكرت رعيته عليه ذلك. ثم أغروا عليه عميه أحمد آغا وفتحي بك ولدي افراسياب فخرجا إلى السلطان وتشكيا منه فوجه معهما عسكراً عظيماً على أخذ البصرة من يدي حسين باشا وتسليمها إليهما. وكان قائد العسكر مرتضى باشا حاكم بغداد في ذلك الوقت فلما وصل مرتضى باشا إلى حدود البصرة دعا حسين باشا أمراءه واستشارهم في أمره فما رأى عندهم ما يسره لثقل قلوبهم عليه سابقاً ولميلهم إلى عميه. فانهزم إلى بلاد بهبهان من بلاد العجم وأخذ معه خدمه وحشمه ولبث هناك. وجاء مرتضى باشا مع أحمد آغا وفتحي بك ودخلوا البلاد بغير حرب. فلما =

. . . .

= رأى مرتضى باشا البصرة أعجبته فقتل أحمد آغا وأخاه فتحي بك وحكم هو في البلاد.

فلما رأوا أهل البصرة ذلك من فعله تنكروا منه وأنكروا ذلك فتحالفوا مع أهل الجزائر وعصوا مرتضى باشا وقتلوا عماله في كل مكان وحينما اطلع على عصيان الرعية ووثوبهم عليه لم يسعه غير الهرب فهرب من البصرة مع من حضر من جنده وقتل باقي عسكره.

ثم أن أهل البصرة راسلوا حسين باشا وهو مقيم في بهبهان واعتذروا إليه فرجع إلى البصرة وتحكم فيها وذلك في سنة (١٠٦٤) أربع وستين بعد الألف فزاد ظلله وكثر على ما كان وتجبر في سلطانه. إلا أنه لم يخرج عن طاعة السلطان وخرجت هداياه إليه.

ومع ذلك فإنه كان محباً للعلماء والفضلاء وأهل الأدب. والشعر له سوق في دولته وعطاياه متصلة إليهم والوفود متراكمون على بابه تصلهم منه العطايا الجزيلة وفي الحقيقة انه كان أباً للأدب فلما ذهب يتم.

ثم أنه أرسل هدية إلى السلطان واشترى تاج الوزارة. ثم وجه عسكراً إلى الإحسا فافتتحها وذلك في سنة (١٠٧٣) ثلاث وسبعين بعد الألف وكان فتحها عنوة بالسيف وقتلوا منها خلقاً كثيراً، واستباحوا بها. وكان هذا الفتح هو السبب في غضب السلطان عليه لأن حاكم الإحسا المعروف بمحمد باشا بن علي باشا انهزم إلى السلطان وشكا حسين باشا وأخبره بما =

على القوة والبصيرة فاتصل خبرهم بحسين باشا وهو حينئذ الحاكم فيها. والمتصرف في نواحيها. فعزم على محاربتهم. ومقاومتهم ومناوأتهم. فجمع جيوشه وجند. وحصن حصونه وشيد. وخندق الخنادق. ونصر أعلام الحرب والبيارق. وشد العزم. واستعمل الحزم وكان من بعض حزمه. ومواقع فهمه. أنه أصر بإخلاء الديار. حتى لا يبقى فيها من ديار. فخرج الناس على الطبقات. ملأ الفجاج والطرقات. وكان ابتداء خلو المغاني. في غرة جمادي الثاني. ففي اليوم الأول منه طلعت الكبرا. وفي الثاني التجار والأمراء. ثم تثاقل الباقون بالقعود. ومنوا أنفسهم بالوعود. فحين اطلع على سرهم. ومكنون أمرهم. أمر بأن ينادي المنادي في الحاضر والبادي. والموالي والمعادي. إلا من أنذر فقد أعذر ومن بصر. فما قصر. ومن أقام إلى ثالث يوم فماله ورأسه للعسكر.

= فعله مع أهل الإحسا حتى توجه إليه العسكر المذكور وهو الذي أنشأت هذه المقامة لأجله في السنة المؤخرة. فكانت مدة حكومته في البصرة أولاً وآخراً إحدى وعشرين سنة إلى هزيمته الآتي ذكرها إن شاء الله.

قال المخبر بهذه الحكاية وكنت في ذلك اليوم ممن سمع الندوة. وكان له بالمرتحلين أسوة. وفي اليوم الذي حق فيه الرحيل. وصح القيل. وجادت السماء. وصحت الأنواء. حتى امتلأت بطون الطرق. بالسيل المندفق. وحين تحقق الوحي. وحشر الناس ضحى. قلنا نفخ في الصور. وبعث من في القبور. وحل في الناس من شدة الوحل ما يكل عن معاينته الطرف. وعن بعضه الوصف. فبينما أنا واقف عند جسر بريهة[1] إذ مر بهيم. على ظهره هرم. وهو يبوء

(١) بريهة مصغرة اسم محلة من محلات البصرة هي أقصاها من الجهة الشرقية فاصلة بينها وبين المناوي. وأهل هذه المحلة عملهم البواري والتنانير والأجاجين وما أشبه ذلك. وذكر في القاموس. ونهر بريهة تصغير إبراهيم أحد أنهار البصرة ولعله هذا والله أعلم.

أقول واقعة البصرة أرتنا كل عجيبة. وأتتنا بكل غريبة. حتى أن الأمر الغريب لا يستغرب. وما بقي لمتعجب متعجب.

فممّا رأيناه وشاهدناه أنه حكم على أهل الجزائر رجل يقال له كنعان بن عثمان الشاعر وقد كان قبل ذهاب دولة حسين باشا مع أبيه عثمان يغنيان في الرباب في الأعراس. في مجالس أدنى الناس. =

بثقله. وينوء بحمله. يقوم ويقعد. ويحل ويعقد. فتعجبت غاية العجب. وجعلت أتفكر بأبي العجب. وازدحم الناس على الجسر. وطلعت المخدرات حسر. وظن أنه يوم الحشر. فبعداً للظالمين وخسر.

ولما جزت العبرة. أجريت العبرة. لامرأة سقط ولدها من يدها في وحل. تكل منه الرجل. ولا يعبر منه إلا رجل. وكان معي رفيق ذو نجده. سطيع لما

= ومن العجائب رجل يقال له هجول الدلال كان أولاً وزاناً في سوق الطعام ثم ترقى إلى خدمة الدلالين ثم صار دلالاً. ثم ما غير قليل من الزمان حتى حكم على أهل الجزائر.

ومن العجائب أن عبد الله چلبي بن علي آغا أخا يحيى آغا لأبيه وهو المعروف بابن مرجانة في هذه الواقعة انحطت حالته إلى أن عجز عن قوت نفسه فضلاً عن عياله. ثم أنه جعل نفسه خادماً لبعض أهل اليسار من توابع البصرة وبقي عنده في بيت مضيفه أي مضيف ذلك الرجل. فكان دفؤه في الشتاء الشمس في النهار والنار في الليل وهو في بيت مضيف ذلك الرجل إلى أن مات على هذه الحالة. ولو نذكر من هذه المادة وأمثالها ما رأيناه لأعقب الملال وإنما ذكرنا هذا تلويحاً وإشارةً إلى ما حدث في البصرة من انحطاط الأعالي وارتفاع الأداني نسأل الله العفو بمنه وكرمه ونعوذ به من المثل السوء ونسأله حسن الخاتمة.

أعده. فأنقذها مع ولدها. وخرج آخذاً بيدها. ثم جزنا إلى دروازة المناوي[1]. والناس بين قائم وهاوي. وقد عدم الحيا. لكثرة الحيا. فكم من رجل قد فر من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. وفصيلته التي تؤيه وهو يقول نفسي نفسي. ولامرأته لست بعرسي. هذا وهلال بن سنبل رائد الشرطة يدور في الأسواق. من زقاق إلى زقاق. راكباً على حصانه. حول جملة من غلمانه. وهو معلن بلسانه. إلا من أصبح عليه ليله. ففي غدٍ شؤمه وويله. فحينئذٍ أعلن الناس بالبكاء والجوار. لفقدان السفن والجوار. ولم يسعهم دون أن شرعوا في تقويض بيوتهم الصحاح. وجعلوها كالسطاح وحملوا عليها النساء والأولاد. بعد أن تركوا الطارف والتلاد. ويومئذٍ اجتمع في العشار من سطائح

(١) المناوي بتشديد النون هو القلعة الفاصلة بين البصرة وشط العرب وفيها مضى حصين يحدّهُ شمالاً العشار وجنوباً النهر المعروف بالمناوي. والقلعة مضافة إليه فيقال قلعة المناوي وقد يطلق اسمهُ مجازاً والعشار بالتشديد هو النهر الآخر الآخذ من شط العرب الداخل في البصرة إلى أقصاها والعماير على حافتيه ـ يمين وشمال ـ كأنه أحد انهار الجنة.

القصب ما يعجز العداد احصا. والرواة له استقصا.
وما مضت الأيام الثلاثة واقترنت بالرابع. إلا والبصرة خالية المرابع. قد رحل عنها الساكن. وخلت منها المساكن. فأما المدارس. فدوارس. والمحافل. من أهلها حوافل. والنادي. بالويل ينادي. ولم يُر بالمساجد. ساجد. ولا للقهاوي. هاوي. ولا للمحافل حافل. فتمثلت والشجون تعرقني عرق المُدا ولو ناديت لما أجيب الندا:

دارت على دار الهوى أيدي الحيا
وربعت ربع الظباريح الصبا
إذ أصبحت بعد الأنيس قفره
لا يسمع الطاوي بها إلا الصدا
وأربعت في ربعها عفر الضبا
بعد مهات الدل أمثال المها
فارقتها فرقة روحي جسمها
ولا حياة بعدها إلا اللقا

(فصل) ثم بدأ الخراب في ناحية الجنوب[١].

---

(١) وناحية الجنوب علم للقرى ما بين البصرة والبحر المالح من الجانب الغربي وهي مشتملة على أنهار كثيرة وعلى كل نهر =

وقد علقت بهم أمور تزيد شغوب. وكان المسلط على

= قرية. فالنهر الأول مما يلي البصرة (المناوي) ثم (الخورة) ثم (السراجي) ثم (مهجران) ثم حمدان ثم (يوسفان) ثم (اليهودي) ثم (أبو الخصيب) ثم (الفياضي) ثم (النوفلي) ثم (الزين) ثم (المطوعات) ثم (الحنت) ثم (الشباني) ثم (الكيعرة) وهو آخر الناحية من جهة الجنوب وهذه القرى المذكورة في غاية العمارة والحسن. ويمكن أن يقال أنها أحسن الباقي من قرى البصرة.

وابن شاطر أحمد. اسمه علي أحد غلمان حسين باشا (والسراجي) بتشديد الراء اسم نهر من أنهار الناحية الجنوبية وهو في غاية العمارة وفيه موضع اسمه خريبط يضرب به المثل في حسن العمارة وكثرة الفواكه والثمار.

والأمير حسن بن طهماز هو أيضاً أحد غلمان حسين باشا. وأصله من الدورق من قرية يقال لها الحوز. وكان أبوه طهماز قد انتقل عنها إلى البصرة وخدم حسين باشا. وفيما يقال ان طهماز كان هارباً من مهدي سلطان حاكم الدورق. وقد أهدى لحسين باشا هدية. وكان ابنه حسن المذكور من جملة الهدية. لأن حسين باشا كان يحب المرد وربما نسب إليه أنه يفعل بهم الفاحشة والله أعلم بحاله. وكان حسن مقبولاً حسن الصورة فقبله حسين باشا واستخدمه به إلى أن بلغ ونبتت لحيته ثم ولاه حكومة القبان. وبإمارته في القبان كانت هذه الواقعة فأرسل إليه وولاه تخريب الناحية على ما هو مذكور في المتن وفعلوا بأهلها كل قبيح.

تحويلهم. من بعد نهبهم وتهويلهم. ابن شاطر أحمد للسراجي وما يليه. والأمير حسن بن طهماز أمر باقي البلاد إليه. وما مضت أيام قلائل. حتى ظهر للشر دلائل. بإخلاء الديار. ونهب الدثار. من بعد قتل وسبي وعذاب ولا سبا. فكم غانيه. تركوها عانيه. وذات نعمه. صيروها بغمه. وأبكاراً أعادوها أيامىٰ. ولم يخشوا أثاماً. لم يزل ذلك دأبهم وفعلهم. والناس بانتظار عساهم ولعلهم. حتى صارت العباد نوازح. والبلاد صحاصح. وكان تمام خراب الجانب الغربي من شط العرب. لمضي النصف من شهر رجب.

(فصل) ثم أمر بالارتحال. لأصحاب الشمال. وقد نادى بهم منادي الرحيل. على سبيل التعجيل. إلا أن من قرن يومه وتؤمه. ولم يعبر حرمه وحشمه. فقد أبحنا ماله ودمه. ومزقنا أدمه. فاخلوا ناحية الشمال[1]

(١) أصحاب الناحية الشمالية والمراد بهم ما يلي البصرة من الجهة الشمالية ويحدها شمالاً القرية المعروفة بالشرش وتشتمل على قرى كثيرة منها (الرباط) و(معقل) و(الهارثة) و(الدير) و(نهر عنتر) و(الشرش) وهي بالعمارة دون الناحية الجنوبية انتهى.

و (الجزائر) علم لمواضع كثيرة أولها قرية (بني منصور)؛ (بني =

حتى لم ير بالمنازل نازل. ولا من يجيب مسائل

= حميد) و(نهر عنتر) وهو أكبر مواضعها قيل أنه مشتمل على ثلاثمائة نهر. ومنها (نهر صالح) وديار (بني أسد) وديار (بني محمد) و(الفتحة) و(القلاع) و(نهر السبع) و(الباطنة) و(المنصورية) و(الإسكندرية) و(البلتان) ومواضع آخر غير ما ذكرنا. وينتهي شمالاً إلى كوت معمر.

والجزائر مشتملة على طوائف عديدة وقرى معمورة وقد كان أهلها ممن حارب دولة السلطان فانتصر عليها وعصى حاكم البصرة وحاكم الحويزة واستقلوا بأنفسهم لوعورة مسالكها وكثرة مياهها وشوكة أهلها واتفاقهم إلى أن فتحت في زمن علي باشا بن افراسياب فحل بهم ما ذكره الله عز وجل في كتابه «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة» فلم تزل أهل الجزائر في نزول إلى يومنا هذا فلا يمكن أن يقال فيهم رجل. والتلويح في هذه المادة خير من التصريح والله المستعان.

و (سحاب) موضع بالجانب الشرقي من شط العرب منه تشد الأحمال إلى الحويزة وهو قريب من القرنة و(السويب) مصغر اسم نهر قريب من القرنة على صدره قلعة تضاف إليه وفي ذنابته ساب المذكور سابقاً.

والحويزة على وزن دويزة قصبة بخوزستان وفي هذا الزمان هي دار الإمارة وفيها قلعة حصينة يسكنها المحافظون عن أمر الشاه أعني ملك العجم والحاكم وأعوانه خارج القلعة ولها سور آخر يحيط بالبلاد كلها واسمه المحسنية منسوب إلى =

السائل. ثم دارت الدوائر. علٰى أهل الجزائر. وأتى أمر الوزير عليهم بالإجلاء عن الوطن. ونهب من قطن. فما مضى إلا اليوم الذي له يوم الترحل خامس. إلا والطلول بعد الأنيس بسابس. وما غبر اليوم الذي بعده واقترن بالثاني. إلا وحق في الديار قول الذبياني. فجنان سبا سباسب. وبيوت الهباة هباهب وتفرقوا أيدي سبا. وبعد الاجتماع صاروا غرباً. حتى ملؤوا الأرض حزناً وسهلاً. والبلاد عرضاً وطولاً. فكم منهم بسحاب قوم ولا قطع السحاب. وكم بالسويب من مال سايب. وكم حازت الحويزة. من ذليله وعزيزه. فيا لها من واقعة ما أجلها. وحادثة لم نسمع بمثلها.

وقد كان سبب هذه الحوادث. وما أدراك ما هذه الحوادث أنه لما كان من أمر الكواوزه(*) ما كان

= المحسن أحد ملوكها من المهتدين وفي هاتين الفقرتين رد الصدر على العجز.

(*) الكواوزة هم المنتسبون إلى الكواز شيخ الطريقة. والعالم بالحقيقة. الشيخ محمد المشهور بالكواز. وقعته في البصرة مشهورة ومعروفة وليست نسبتهم إليه نسبة قرابة بل هم أولاد ـ

= الشيخ الأعظم الشيخ[1] عبد السلام بن الشيخ عبد القادر بن ساري بن ضاعن بن أضبع بن عبد السلام تلميذاً للشيخ محمد المذكور فلذلك نسب إليه فقيل عبد السلام الكوازي كما قيل مروان الجعدي نسبة إلى الجعد بن أدهم أستاذه ثم قيل لأولاده من بعده الكواوزة بعرف هذا الزمان. وأولاد الشيخ عبد السلام كثيرون منهم أحمد ومحمود وطه وعلي وذو الكفل وصالح ومصلح والجنيد وغيرهم.

ولا بأس بالإشارة إلى ما كان من أمر الكواوزة فربما تاقت نفس من لم يطلع عليه إليه لشدة إيهامه في العبارة. فالذي كان من أمرهم أن في سنة (١٠٧٦) ستة وسبعين بعد الألف ورد أمر من السلطان إلى إبراهيم باشا حاكم بغداد على أخذ =

(١) قال العلامة إبراهيم فصيح أفندي الحيدري في تاريخه عنوان المجد: ومن البيوت الرفيعة في البصرة بيت الكواز وهو بيت مجد رفيع وخير وافر. نشأ فيهم عدة رجال أخيار كرام كأمثال الشيخ أحمد والشيخ درويش وكانا من أكابر الناس من ذوي الخير والجاه والمال الوافر والصدقات. وكان جدهم الأعلى الشيخ أنس من الأكابر. وهو من أولاد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وبقي منهم بعض الناس وقد نزل جدي العلامة الشريف أسعد أفندي الحيدري مفتي الحنفية ببغداد في بيت الشيخ أحمد المذكور فاحترمه وأجله بما يتحير منه الناظر (انتهى).

ووجد بهامش الرسالة ما نصه:

وهم المشهورون الآن بآل باشا أعيان وأول من حاز هذا اللقب منهم الشيخ أنس بن الشيخ درويش في منتصف القرن الثاني عشر بموجب فرمان سلطاني.

= البصرة من يد حسين باشا بسبب شكوى حاكم الإحسا عليه وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فتجهز إبراهيم باشا بعسكر عظيم قيل إنهم كانوا خمسين ألف محارب ومعه سبع باشوات ولما سمع حسين باشا بذلك بنى القلعة المعروفة بالقرنة وأحكمها واستعد للحصار ولما وصل إبراهيم باشا إلى البلد الموسومة بالعرجا أرسل كتاباً إلى أهل البصرة عاماً وإلى الكواوزة خاصاً عنوانه: من إبراهيم باشا إلى مشايخ أهل البصرة ومن فيها من الرعايا والتجار خصوصاً قدوة الراسخين الشيخ ذو الكفل وقد كان هو بقية الموجودين من أولاد الشيخ عبد السلام نفسه.

أما بعد فسلام عليكم ومعلوم عندكم أننا توجهنا إلى فتح البصرة من يد الطاغي حسين باشا فحين اطلاعكم على مضمون كتابنا تطيبون أنفسكم وتؤمنون الرعايا فما ينالكم منا إلا الخير والسلام.

ولما ورد الكتاب إلى الشيخ ذو الكفل وجماعة المشايخ سمعوا وأطاعوا له وعصوا خليفة حسين باشا على البصرة وأخرجوا عياله وحرمه منها ثم حاصروا خليفة حسين باشا وكان يقال له محمد بن بداغ وقتلوه. ولما سمع بذلك حسين باشا وهو محاصر في القرنة جهز عليهم عسكراً وغزاهم بتاتاً وهم نائمون وأضاء الصبح فوجدوا الشيخ ذو الكفل مقتولاً وبعض من أعوانه وانهزم الباقون من البصرة.

وأما إبراهيم باشا فإنه وصل القرنة وحاصر حسين باشا أشد =

حتى ضاق بهم كل مكان ووقعوا في حيص بيص. وظنوا مالهم من محيص. انهزم منهم إلى السلطان أربعة من أهل الشان. وتبعهم بعض أتباعهم. والمتطبع بطباعهم. وذلك حين رجوع إبراهيم باشا من حربه. مع جملة أعوانه وحزبه. وكان لسوء القدر والقضاء. وتحقيق الإمضا. إن أرسل حسين باشا معهم وزيره.

= الحصار وبقي على ذلك مدة ثلاثة أشهر. ولما لم ينالوا منه أظهروا له الصلح فتصالح معهم على أن يرسل وزيره يحيى آغا وتعهد له إبراهيم باشا بأن يأخذ له أمر الحكم ويرسله مع يحيى آغا ولما رجع إبراهيم باشا تبعه أربعة من الكواوزة وهم أحمد بن محمود وإبراهيم بن علي واثنان غربت أسماؤهم عني وتوجهوا معه إلى السلطان على ما هو مذكور في المتن.

أقول رأيت ختم إبراهيم باشا في الكتاب الذي أرسله إلى الكواوزة وكان نقشه ثلاثة أبيات بالشعر الفارسي اثنان منها في دوره وواحد في الوسط وهو مشتمل على اسمه أما اللذان في دوره فهما:

أي باد خدا بحق هستي   شش خير مرامور فرستي
علم وعمل فراخ دستي   إيمان وأمان وتندرستي

أما البيت الذي في الوسط فهو:

در دلم شد خيال باد حقم   صار قلبي مقام إبراهيم

وكان يحيى آغا متزوجاً بأخت حسين باشا المسماة حجية وكانت من أفراد النساء بالكمال وعلو الهمة.

والمعد لتدبيره يحيى آغا ابن علي آغا وهو حينئذ صهره. وإليه نهيه وأمره. كي يصلح من أسره ما فسد ليكون حالاً بهذا البلد. ولما فارق هو والكواوزه الأوطان. وتوجهوا يؤمون السلطان. وذلك لثمان مضين من شوال سنة (١٠٧٦) ست وسبعين بعد الألف وبهذا التأريخ جرى الصلح بين إبراهيم باشا وحسين باشا بعد حرب طويل. وقال وقيل. ورجعوا عنه. ولم ينالوا منه. ولما وصل المشايخ إلى السلطان. وتسنى لهم بث الأضغان. شكوا إليه مصابهم. وحالهم وما أصابهم. وأباحوا فعل حسين باشا بهم لديه وأكثروا الشكوى عليه. فمذ سمع شكواهم. أجاب دعواهم. وأوعدهم أعواناً. ولم يسألهم على ما قالوه برهاناً. وقال لهم: قد عزلناه. فمن تختارونه مكانه أنزلناه. فقالوا: قد اخترنا مملكنا يحيى إلى أن نسلب ثوب المحي. وها هو أطوع أوليائك. وأحمى لدينك ودين آبائك. فحين استنصح قولهم، واستصح عقولهم. دعا به لغير دعابه. فجاؤوا به مستمعاً لجوابه. فأجلسه جانبه. وبش له وما جانبه. وقال له: يا يحيى قد اخترناك لما اختبرناك. وصوبناك فنصبناك. فتوجه حاكم

البصرة فقام قائماً وقعد. ولثم الأرض بين يديه وسجد. فقال: قد أنعمت وأوليت. فشكراً لما سننت ووليت.

(فصل) وحين فوض إليه أمر البصرة لغير شكم. وتلا عليه آية وأتيناه الحكم. اجتمع لديه من بني الأصفر ما يحاولهم الناظر كثره. وخاطره فكره. فقيل إنهم أربعون ألفاً. وقيل ستون ألفاً. وقيل وهو الأصح أنهم كانوا ثمانين ألفاً. ومنذ حفت به الجنود. وتحققت أنه العميد. توجه بهم طالباً الوطن قاطعاً من أودائه الشطن. إذا أنت لم تنفع فضر.

اتخذتكموا درعاً حصيناً لتمنعوا

سهام العدى عني فكنتم نصالها

قال المخبر بهذه الحكاية. ولم يزالوا بين أدلاج وتأويب. وتصعيد وتصويب. ووخد ودنيل. وإجازة ميل بعد ميل. حتى ألقوا الجران ببحران. بعد خلوه من الأهل والحيوان. وكان نزولهم بعد الجد والدأب. في اليوم الرابع من شهر رجب[١].

---

(١) (ترجمة السيد محفوظ حاكم الحويزة وذكر مقتله).

هو السيد الأجل كريم الحسبين السيد محفوظ ابن السيد جود =

= الله ابن السيد خلف ابن السيد مطلب نسبه أشهر من أن يذكر. وفضله أكثر من أن يحصر. كان عابداً زاهداً تقياً نقياً محباً للعماء والأفاضل ثمالاً لليتامى وعصمةً للأرامل صحبته مدة. وعاشرته برهه. فوجدته محمود السيرة. حسن العاشرة. طيب المحاضرة. كريم المخبر. مأمون المغيب والمحضر.

«حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت بشدة الباس منه رقة الغزل»

وقد كانت المهاجرة بينه وبين عمه السيد علي خان حاكم الحويزة بسبب قتل والده المولى جود الله. فلما مات المولى علي رحمه الله وتولى الحكومة ابنه المولى حيدر آتي إليه وصالحه. ثم أتى الحويزة والياً عليهم ولم يلبث المولى حيدر حتى خرج عليه بعض أخوته ومعه قبائل من الأعراب من آل كثير وغيرهم من آل السلطان والفضول وغيرهم فأرسل المولى حيدر إلى أعمامه من أولاد المولى خلف مستنجداً بهم. وكان من جملة من استنجده المولى محفوظ وأخوته المولى إدريس والمولى عبد الخالق والمولى بدر والمولى عبد المعين. فسار إليه مع أخوته وابنه المولى عيد ولما وصلوا إلى مودان وعبروا كارون ثارت عليهم الأعراب المذكورون ومعهم بعض من أولاد المولى علي ووقعت بينهم الحرب فانهزم أصحاب السادة أولاد خلف ولفوا بأنفسهم الأعراب فما كان الاجولة جائل حتى طرحوا بأجمعهم وانكشفت الحرب فوجدوا المولى محفوظ مقتولاً هو وعمه عبد الحي ابن المولى خلف فلما ورد علينا الخبر بذلك ضاقت علي الأرض برحبها وتأسفت =

= عليه وكرهت المقام بعده لما كانت بيني وبينه من الألفة. ثم رثيته بقصائد منها الرائية التي منها.

فتى كملت أخلاقه وصفاته كريم المحيا طيب الاسم والذكر
فتىً كان أحيا من فتاة حيية وأشجع من ليث يصول له الحذر
سابكيه لليوم الطويل يصومه مخافته عند الوقوف لدى الحشر
وابكيه لليل البهيم يقومه لا وراده يبكي إلى مطلع الفجر
وابكيه للقربا ومن حل حوله وأرملة أو من أصيب من الفقر
والحرب لما بارز الألف وحده فناب مناب الليث في بقر البتر
فيا لك مقتولاً تضعضعت العلا لمصرعه والدين مدمعه يذري
كأن أباهم حيدر الطهر قائل لهم أن موت العز في صهوة المهر
يذكرني مثواه مثوى إمامنا الحسين لدي الوغا من غير ما نكر
غداة هوى عن سرجه لهويه فأعقب أحزان تشب مدى الدهر
فيا سيداً عشنا بجدواه برهةً من الدهر ما ندري الخطوب متى تسري
فقدناك فقدان الظليل دليله لذي حاجة في بطن مهمة قفر
عليك سلام الله من ناحل القوى كثير البكا دامي الحشا عادم الصبر
فلو أن مشتاقاً يذوب صبابةً إذا سمع الناعي لذبت وما أدري
ولكن حكم الله حتم محتم على خلقه فيما يشاء من الأمر
سقى الله مثواك الشريف غمامةً منالروح والريحان طيبة النشر
وعوضك الرحمن من زينة الفنا ثياب البقا في الخلد من سندس خضر

وقتل المولى محفوظ في شهر ربيع الأول سنة (١٠٩٠) التسعين بعد الألف انتهى. وبالجملة فابن غانم لم يرع لحسين باشا حقه. ولا كافاه على إحسانه عليه بعشر العشر مما =

(فصل) وكان حسين باشا قبل وصولهم. وتهيئة نصولهم. استعد لحربهم. والالتقاء بحزبهم. وبنى ثمة متريساً. وأعد فيه خميساً. فلما تساوت بهم الأرض. ونظر البعض إلى البعض. قامت الحرب على ساق. والتفت الساق بالساق. وظن أنه الفراق. وسقى بعضهم بعضاً كأساً مرة المذاق. وقد استجرت الداهية. وما أدراك ما هي. نار حامية. ودماء هامية. وآساد مذبوحه. وأجساد على الرمضا مطروحه. فلم تكن إلا كجولة جايل. أو صولة صايل. حتى انتصرت الروم على العرب. وسقوهم كاسات العطب. وحل بأصحاب الباشا البوار وولوا الأدبار. ولما سكن

= يستحقه. فإنه زوَّجَهُ أخته وولاه أموره كلها ولكنه لما عجز عن حسن المكافآت. مال إلى سيء المجازاة.

و(بحران)(١) بالباء الموحدة والحاء المهملة موضع في الجزائر بين ديار بني أسد والباطنة كانت فيه الواقعة بين عسكر الروم وعسكر البصرة وحكي أن الروم بنوا برجاً من رؤوس المقتولين في ذلك اليوم من عسكر البصرة وجعلوا الرؤوس في موضع اللبن وعوضاً عنه.

---

(١) وهو معروف الآن بـ (أبي عمران).

المآزق. وهوت الشقاشق. وافتقدوا من فقد. وعليه المأتم عقد. وقد حق القيل. بأنه لم يبق من عسكر البصرة إلا القليل. وحين اتصل الخبر بالحسين. عمد إلى حصنه الحصين. الموسوم بالعلية. المعدود من الحصون الأولية وحشد فيه جنوده. وركز فيه بنوده. وعبر هو ووديده. وطارفه وتليده. إلى الجانب المعروف بسحاب القريب من مسافة الذهاب. وبنى فيه خياماً. واتخذه مقاماً. (قال الراوي) ولما هزم الجمع وانكسر. وكان الغلب لمن انتصر. اتبعوهم مشرقين. وقفوهم لاحقين. حتى شارفوا العلية رأي البصر. وصارت عيناً بعد أثر. حلوا نازلين. ونزلوا محاصرين وحاصروا مجاهدين. وجاهدوا حتى أتاهم اليقين. وهزم حسين باشا وجنوده أجمعين. وغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين. وكان ذلك بعد حروب طويلة إحصاؤها يمل القلم. ويعقب السأم. وبالجملة ففي اليوم الذي دخلت الروم العلية[١] بعد نكبتهم الأولية.

---

(١) (العلية) منسوبة إلى علي باشا أبي حسين باشا وهو الذي أتقن بناءها وذلك حين فتح الجزائر وكانت من قبل قلعة صغيرة اسمها القرنة ـ وإلى الآن تعرف بهذا الاسم أيضاً ـ.

حكموا في أهلها السيف من أول عروبه. إلى بعد صلاة مكتوبه. ثم رفعوا السيف وأعطوا الأمان. وكان ذلك في اليوم الحادي عشر من شهر رمضان. قيل ولما انكشفت معمعة القتال. وأحصى من قتل من الرجال. فكانوا أربعة آلاف مع الزيادة. غير الرؤوس والقادة.

(فصل) حدثني بعض من حضر. وللوقعة نظر. قال ضمني السويب. حين انقطع السيب. وغلبت الروم. وانتقض أمرنا المبروم. إن أهل السويب وسحاب لما نظروا إلى ذلك. وتحققوا المهالك. فروا من خوف العدو. حتى ملؤوا جوانب الدو. كهولاً

= ولما فرغ حسين باشا من حرب إبراهيم باشا زاد في تشييدها وإتقانها وهي ثلاث قلاع كل واحدة منها محيطة بالأخرى وبينهما فرجة صالحة للمقاتلة ويحيط بثلاث جوانبها الشط وبالجانب الآخر خندق عظيم وأسوارها من الطين والتراب لا يكاد يعمل فيه بندق المدفع ولكن مع القضاء المحتوم لا تنفع الحصون وقد حكي.

في هذه الفقرات القليلة هزيمة عسكر البصرة واتباع الروم وغلبهم إياهم وهزيمة حسين باشا بمن نجا معه بما لو استعمل معه التطويل لملأ مجلداً وهذا يعرفه من رضع ثدي البلاغة.

وشباناً. ونساءً وصبياناً. وبنين وبنات. وآباء وأمهات. أبكاراً وثيبات. وحرائر. أهل الجزائر. ملؤوا الفلا. بلا ولا. وما ظننا أنهم عرجوا من نزول البلا بالبشر. بل قلنا أنهم خرجوا من الأجداث كالجراد المنتشر. وتبدلت الأرض غير الأرض. وبرزوا إلى موقف العرض. (قال) وتوجهنا مما واجهنا. ماشين إلى الحويزة. راشين لأنفسنا العزيزة.. بلا غطا. ولا وطا. فكم حامل القت ما في بطنها وتخلت. وذات ولد ما في حظنها وتولت. وذي زوجة أنكرها ومضى. وذي أب تركه على الرمضا. والكل يريد النجاة بنفسه. وإن لا يكون يومه كأمسه. فكم طفل مات. وكهل فات. وداع يا أبي يا بني. أما تأخذكم الشفقة علي. فلا من يثني على ذافرته. ولا من يلوي على حافرته (قال) ولم نزل كذلك. ما بين سالك وهالك. حتى قدمنا. على ما قدمنا. إلى حويزة بعد فقدان الجل. ومعظم الكل. خالين من الطارف والتلاد. متخلين من النساء والأولاد. فيا لله ما أعظمها مصيبة وأفعمها عجيبة(١)

(١) هنا شيئان لا بأس بالتنبيه عليهما (أحدهما) النوع المتعجب منه من ذهاب دولة حسين باشا وخراب بلاده بسبب وزيره =

. . . .

= يحيى آغا فأقول: لا غرو فإن الله سبحانه وتعالى إذا أراد بملك خيراً قيض له وزيراً صالحاً إن هم بخير سدده وأعانه، وإن هم بقبيح ثبطه عنه وقبحه لديه والعكس بالعكس انتهى.

وقد ابتلى حسين باشا بمثل هذا الوزير وقد كان ذا نفس شريرة يحسن له كل قبيح. من جملة ذلك أنه زين له فتح الإحسا وأخذها من صاحبها خلفاً عن سلف محمد باشا بالعساكر من البر والبحر حتى أخذها وفعل عسكره بها وبأهلها كما فعل بأهل البصرة حذو النعل بالنعل. وكان فتح حسين باشا إياها هو السبب في تجهيز عساكر السلطان إليه. إذا أراد الله إهلاك النملة خلق لها جناحين. وما هذا بأول من ابتلى بوزيره وكان ذهاب دولته من مشيره ونصيره بل جرى مثل ذلك على الملوك السالفة والأول المتقدمة (والثاني) ما آل إليه أمر حسين باشا بعد هزيمته فإنه ربما يتقادم العهد فيحب الواقف على هذا الكتاب الاطلاع على أمره فنقول:

إنه بعد هزيمته من العلية وصل الدورق وترك فيها أهله وحشمه ثم توجه إلى شيراز مستنصراً بشاه العجم وهو يومئذٍ الشاه الأعظم ملك إيران الشاه سليمان بن الشاه عباس ـ بن الشاه صفي ابن الشاه عباس بن محمد خدا بنده ابن شاه طهماز ابن شاه إسماعيل بن شاه حيدر ابن شاه صفي مرشد بن شيخ جنيد بن إبراهيم بن علي بن صدر الدين بن سيف الدين بن حزيرانيل بن قطب الدين بن صالح بن عوض شاه بن فيروز شاه بن نجي الدين بن علي بن حسن بن أبي القاسم بن ثابت =

ما سمعنا بمثلها في الأول. ولم تحك في الكتب الأول. هذا وحسين باشا توجه طالباً العجم. ومتحصناً ممن عليه هجم.

(فصل) ولما جاءنا الخبر بأن حسين باشا قد انهزم. وقوض خيامه وزم. وكنت يومئذٍ بالقبان محط رأسي. ومجمع أناسي. فغشينا من الهم والغم. ما غشي فرعون وجنده من أليم. وخفنا صولة بني الأصفر. وما علمنا أن يحيى أبو المظفر. فقربنا الجوار. وخربنا الديار. ورفعنا ما جاد. ووضعنا ما آد. وتحالفنا «أنا لا ندخلها أبداً ما دامو فيها فإن

= بن داود بن حزة بن موسى الكاظم عليه السلام.

فلما وصل إلى شيراز وعرض أمره لدى الشاه فأخبرنا أن بعض الأمراء كان حاقداً عليه لما وصلهم من بغضه لهم سابقاً فثبطوا الشاه عن نصرته ثم أنه ترخص وتوجه إلى الهند فأكرمه ملك الهند وولاه بعض مدنه وهي البلد المعروفة بـ «باچير» على وزن «زبير» وبقي هناك إلى أن هلك في بعض حروب من يليه وقتل هو وابنه علي بك في أخبار يطول شرحها وقد كان قبل هلاكه أرسل إلى حرمه وحشمه ونقلهم من الدورق إلى الهند فهم هناك إلى الآن والله أعلم بما يؤول إليه حالهم بالمستقبل.

يخرجوا منها فأنا داخلون» ثم أزمعنا السفر. وطلبنا المفر. وتركنا البيوت خالية. فما تسمع فيها لاغية. حتى انتهى فراقنا. وترامى انطلاقنا. مع بعض الشعور. إلى بندر المعشور[١] بعد شدة ونصب. وتعب وأي تعب. كسب الولدان شيباً. وألبس الأبدان تعذيباً.

ومن جملة ما آلم. وأعقب الألم. ما أصابنا في الليل. على شاطىء الفحيل(*) وذلك حين قوضت الرجال. وأزف منها الترحال. واعتضدنا عصى التسيار. قعدنا في الفلك السيار. ولم تزل سفينتنا تجري. وقد طاب لها الهوى. واستعدت للنوى. حتى أتاها الهوى من الصدر. ورماها إلى جانب البر.

(*) والفحيل تصغير الفحل اسم نهر شرقي البورة ملاصق لها، شاطيه بعيد المدى عن الأرض اليابسة. والبورة بالباء المفردة والراء بعد الواو وفي آخره هاء اسم للحد بكسر الحاء المقابل خور موسى ومنه تدخل مراكب من أراد الدورق أو بندر المعشور من الهند أو البحرين أو غيرهما.

---

(١) والبندر المعشور هو مرسي السفن وآخر ما تصل إليه السفن لمن يريد خلف آباد وهو من أعمال الدورق.

فلحمت على شاطىء الفحيل. وركس أكثر أهلها في الوحل. فما اسطعنا دفعها. ولا استطعنا رفعها. فلم يكن إلا كلمح البصر. حتى غاض الماء وجزر. فبثثنا لما نالنا. ومكثنا على حالنا. إلى مد الماء حين اختلطت الظلماء. وقد كانت ليلة كثر قرها. وافل بدرها. ولما طغى الماء وفاض. وجاوز الوفاض. ولم تطف السفينة. لركسها في الطينة. واستشعرنا القلق. وتيقنا الغرق. وتحققنا أن مخلب الحمام بنا قد علق. فلم تطب أنفسنا بالجلوس. دون إلقاء أنفسنا بالقاموس. كي نعبر إلى البر. وننتظر عاقبة الأمر. بعد التخلي من المال والبنين. والغالي والثمين.

(فصل) وكان معنا جماعة من أهل البصرة. الذين انهزموا في ساعة العسرة. فمذ نظروا نزول القضاء. ورأوا بعد مسافة الفضاء. أقامو مأتم النياحة. لعدم معرفتهم بالسباحة. وأعلنوا بالبكاء. وإلى الله بالمشتكي. واستعانوا بالتأذين. ودعوا الله مخلصين. وقد كان في طريق عبورنا. ومسلك مرورنا. وحل عمقه. إلى موضع المنطقة (قال) المخبر بهذه الحكاية: فبينما أنا واقف لما قاسيت من الوحل. وأعاين ما نزل

بي وحل إذ سمعت من خلفي رنة أنين. من قلب حزين. فلويت عناني على ما أعاني. وإذا بها امرأة في حضنها ولد. وفي قلبها كمد. وهي تقرح الأكباد بحرارة نحيبها. وتجرح الأصلاد بمرارة نديبها. فجئت إليها. وقد حدتني ميعة النشاط عليها. فتناولت ابنها من حضنها. وجعلت أسحبها بردنها. فما تقدمت قدمين. وما خطيت خطوتين. حتى ظننت أعضائي تفصلت. ومرارتي قد انفصلت. فتركتها وجعلت أعالج الصبي على ما بي. وعظيم تعبي ومصابي. هذا وأما باقي الجماعة. فإنهم عجزوا عن الاستطاعة. وصار لهم دوي كدوي النحل. وصراخ كصراخ الثكل. فبينما هم قد أيقنوا بالوفاة. ويئسوا من الحياة. إذ استروحنا ريح النجاة. وإجابة الأواة. وداع من تلقاء السفينة لا إله إلا الله محمد رسول الله. فمذ سمعنا صوت التهليل. والثناء على الرب الجليل. التفتنا وإذا السفينة وقفت. وعلى الماء طفت. فرمنا الرجوع. كي نريح القلب الموجوع. فلم يكن لنا طاقة النهوض. لفتور الحبل المبهوض. فلما رآنا أهل الفلك. قد أشرفنا على الهلك. أتونا مجردين. حال كونهم منجدين.

ونقذونا من تلك الأهوال. وأربكونا السفينة بتلك الحال. فبتنا تلك الليلة على ما بنا من الشجاء. حتى شابت ذوائب الدجى. فكانت شبيهة بليلة النابغة في بيته المنعوت[١]. أو إحدى ليالي يونس ﷺ في بطن الحوت.

(فصل) ولما طلع ضوء الشمس. ولم نعتبر بما أصابنا في الأمس. بل طلبنا الجهة المعتمد عليها فيما سبق. ودفعنا قلع السفينة لكي تنطلق. فما انطلقت إلا كما يفيق السكران أو يجوع الشبعان. حتى القتنا على الجانب الجنوبي الذي هو محل الأخطار. وحولت تتلو سوره الانفطار. فما وعينا إلا وقد نعينا. وما هدينا إلا أن دهينا. وما شعرنا حتى غمرنا. ولا فرحنا حتى ترحنا. ولا غبطنا إلا وقد عطبنا. فتكدر عيشنا الرغيد. وقلنا هذا ما كنا عنه نحيد. إلا أن الشاطىء كان يابساً. وإن كانت نواحيه بسابساً. فأخرجنا من السفينة متاعنا. وبذلك أمرنا اتباعنا. ثم أننا تعاهدنا

---

(١) فبتّ كأني ساورتني ضئيلة   من الرقش في أنيابها السم ناقع
«المصحح»

ماءنا. لنبل به من الحرقة أمعاءنا. وإذا بالإناء قد تخلى. ويتلو عبس الماء وتولى. فتجرعنا بالغصص. وقلنا قصتنا هذه من أعظم القصص. ولما عم الخبر النساء والصبيان. بأن ماءهم فارقهم وبان. أيقن الكل بأن الحين قد حان. وإن اللقا أما عند مالك أو رضوان. فأقاموا النوائح. وأكثروا الصوائح. لما كضهم من العطش. وخامرهم من الطيش والدهش. فلم يجد البكاء نفعاً. ولا وجدنا لما حل بنا دفعاً. حتى إذا كان الليل. وقد علانا الثبور والويل. بتنا نتلظى من الصدى. ويود كل منا لو يفتدى. وأما النوم فإنه طلق العيون لما تحققنا المنون. ولم نكتحل تلك الليلة بالرقاد. لفقدان الماء الذي هو حياة البلاد. حتى قلنا لما سمعنا من النائحة «ما أشبه الليلة بالبارحة» فلما ضاء الصباح. ولاحت براح. اشتد بنا العطش. وخالط العيون العمش. وصارت الأرواح تنكمش. فأعلنا الدعاء. ورجونا به الدواء. واستعنا بالله الفرد الرحيم. ليخلصنا من هذا الجهد العظيم هذا والأطفال قد أغشي عليهم. والباقون قد دار سكر العطش فيهم. ونحن وإن كنا مثلهم. إلا أننا ننظر أسفاً عليهم.

فدعونا صاحب السفينة. وطلبنا منه علاجها لننجو ولو بالعزيزة الثمينة. ثم أننا نجونا بأهلنا وأولادنا. وتخلينا من طارفنا وتلادنا. وركبنا السفينة وظننا أنا هالكون. وقلنا أينما كانت منيتنا تكون. ثم أننا رفعنا قلعها على مهب هواها. وقلنا «بسم الله مجراها ومرساها» فما كانت ساعة حتى لاحت علائم البندر. وتيقنا الخلاص من الضر فحمدنا الله تعالى على السلامة. ولكن بعد أن رأينا أهوال يوم القيامة. فكانت قضيتنا من المفردات المعدة. لأن تذكر في كتاب الفرج بعد الشدة. وكان وصولنا إلى ذلك المكان. في اليوم الثاني من شهر رمضان. ثم أننا حللنا في البندر المذكور. وجعلنا ننتظر عواقب الأمور. وأرسلنا سفناً إلى الساحل فجاؤوا بما لنا. ومتاعنا وما لنا.

(فصل) وقد كانت هذه السنة قد شحت بغيمها. وجادت بغمومها. وحمت وسمها. وأحمت سمومها. وقعدت صايبها. وأطلقت مصايبها. فلا مزنة ودقت ودقها. ولا أرض أبقلت أبقلها. سنة لم تبك سماؤها بدمعه. ولا ضحكت أرضها بزهرة ولا نبعه. ابيضت خضرتها. واسودت نضرتها. وانكسف نورها وما

انكشف نورها. قد امحلت البلاد. وانحلت الأكباد وأخافت العباد. وأعافت الآباء والأولاد. فما سنين يوسف في جنبها إلا نفائس. ولا أيام عاد منها إلا كالأعياد. ابتيع التمر بالتبر. حتى ذهب الذهب. والخبز بالخير حتى أدركهم العطب. فمذ صفرت الراحة من الصفر وفقد العين. فلم تره العين. وخلو من التالد والطريف. في تحصيل الرغيف. لم يبق إلا ابتياع الزاد بالأولاد. وتسليم النفس. إلى تحصيل الفلس. فأقسم بمن جعلها كذلك. وجعل في الأرض مسايح ومسالك. لقد مررت على جمع. من الأكراد يزعمون أنهم كانوا أولي ثروة وجمع. قد جمعوا شيئاً من الأعظم الرمام. وجعلوا يستخرجون مخها بأطراف الأقلام. ليطفوا بذلك حر الأوام. وعلى زمرة من أعراب البادية. أولي سوءة بادية. وهم يلتقطون نوى التمر ولا التقاط نفائس الدر. ويمصونه لما مضهم من الضر. ولا مص شفات كؤوس الخمر. فحين عاينا حالهم. وعينا ما أحالهم. قلنا الإياب. أولى من الذهاب. وإلا فرجعنا إلى منازلنا. مع تابعنا و منازلنا. فكانت أيام إقامتنا في البندر أيام وعد موسى.

ومرورها علينا فيه ما بين رخاء وبؤسا.

(فصل) ولما حللنا القبان. وظننا أن البلاء قد بان. ورجع كل من الغرباء إلى بلدته. مع عياله وحفدته. فإذا البلاء قد عم البلاد. حتى أن الصديق قد أنكر معارفه. والجواد منع عوارفه فأزعجني هوى أرقني. وجوى أقلقني. بأن أصعد نحو البصرة وأصوب. وأنقر عن أمرها وأنقب. وأخطي في أحاديثها وأصوب.

تقلقلت بالشوق الذي قلقل الحشا
قلاقل عيش كلهن قلاقل

وتابعت السرى. وطلقت عن عيني الكرى. وأزعجت العيس. وتركت القيلولة والتعريس. وزجرت طيري. وقلت يا ناق سيري. حتى دخلتها بعد أعياء البدن. وإنضاء البدن. وحللتها لظهور المحجة. لأربعة مضين من ذي الحجة.

(فصل) ولما ألقيت عيس النوى. وقضيت أمنية الهوى طفقت أتشوق في البقاع والمحال. طرفي الغدو والآصال. وأخرج من نادي إلىٰ نادي. لأتعرف في

الرايح والغادي. فإذا الديار متغيرة. والوجوه منكرة.

تـغـيـرت الـبـلاد ومـن عـلـيـهـا
فـوجـه الأرض مـغـبـر قـبـيـح

والمنازل من أجلها خلون «وبالقطين استبدلت قطيناً» «ذهب الذين يعاش في أكنافهم» ويحار الألمعي في أوصافهم. وبدلوا بمن يسوء منظره. ولا يسر مخبره.

حـاشـا بـنـي الـكـواز إن لـهـم
فـخـراً غـدا بـيـن الـورى طـرا
وكـذا الـمـشـايـخ مـن جـمـاعـتـهـم
عـبـد الـسـلام يـزيـدهـم فـخـرا

فإنهم إنسان عينها. وعين إنسانها. وشموس بروجها. وبدور أوطانها.

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التي يهدي بها الساري

فلما رأيت ذبول بهجتها. وخمول مهجتها. عيل صبري. وناديت يا ليت شعري. ثم أني شددت أحمال البين. وقلت الرجوع ولو بخفي حنين.

(فصل) ثم بدا لي أن لا أخرج من المدينة. أو أحضر بها يوم الزينة. ففي بعض تلك الأيام. إني لأيب من الحمام. وقد مررت على مسجد معمور. وكان ذلك بالقدر المقدور. فدخلت لأنظر حال المساجد. وأتفقد في المتعبد والساجد. فإذا أنا بجماعة جمة. وأمة من الناس أي أمة. أولى وجوه مصفرة. وأحوال مغبرة. قد خامرهم العنا. وعلاهم الفنا. فسألت ما لهؤلاء الجماعة. فقيل ما بهم الاداء المجاعة. فقلت ومم هذه الصفره. قيل من جوار أبي عمرة. فاستفهمتهم من أي العشائر. فقيل لي هم من أهل الجزائر. فالتاع لهم قلبي. وارتاع لهم لبي. ونفضت لهم كيسي. ونضضت عنهم عيسى ثم أني جعلت أتفقد أمثالهم. وأتفقه أحوالهم. وإذا السبل بهم معمورة. والبصرة منهم مغمورة. وهم يشكون الجوع فلا مجيب. ويبكون ولا من يرحم البكاء والنحيب. إذ الغلاء قد ساوى بين الجميع. وأدرك الضالع شأو الضليع (قال الراوي) فحين عاينت ما كره إلي حب الإقامة. وكلفني إنشاء هذه المقامة. امتطيت مطا النجايب. وخفقت عن البصرة خفوق الجائل

والجائب. وكانت هذه خاتمة العجائب. ثم أني سرت إلى وطني. بعد قضاء وطري. وجلست بين عشيرتي ومعشري. وكان هذا غاية خبري. ونهاية أثري. والسلام.

(*) نهر معقل أحد أنهار البصرة. ينسب إلى معقل بن يسار بن عبد الله بن ضعين بن حراق بن لاي بن كعب بن عبد الله بن ثور بن هذمة بن لاطم بن عثمان بن عمرو بن أد بن طانجة بن الياس بن مضر المازكي يكني أبا عبد الله وقيل أبا يسار وقيل أبا علي سكن البصرة وابتني بها داراً واختط بها هذا الجر فنسب إليه. توفي في البصرة في آخر خلافة معاوية وقيل إنه توفي في أيام يزيد بن معاوية انتهى.

ويروي عنه عمرو بن ميمون الأودي وأبي عثمان النهري والحسن وجماعة من أهل البصرة وغيرهم انتهى.

والقاضي علي بن محمد بن داود بن أبي القاسم التنوخي وهو مصنف كتاب الفرج بعد الشدة في مدح نهر معقل وهو قوله:

أحبب إلى بنهر معقل الذي	فيه لقلبي من همومي معقل
عذب إذا ما عب فيه ناهل	فكأنه في روض حب منهل
متسلسل فكأنه لصفائه	دمع بخدي كاعب يتسلسل
وإذ الرياح جرين فوق متونه	فكأنه درع جلاه صيقل
وكان دجلة إذ تغطط موجها	ملك يعظم خيفة ويبجل
وكأنها ياقوتة أو أعين	زرق يلام بها الحبيب ويوصل
عذبت فما ندري أماء ماؤها	عند المذاقة أم رحيق سلسل
ولها بمد بعد جزر ذاهب	جيشان يدبر ذا وهذا يقبل
وإذا نظرت إلى الأبلة خلتها	من جنة الفردوس حين يخيل

(الأبلة) هي إحدى كور البصرة العتيقة وأظنها هي البصرة الآن ونهرها المذكور. قال فيه صاحب الجزيرة. هو أحد نزهات الدنيا طوله اثنا عشر ميلاً وعلى جانب النهر قصور وبساتين وفرج ونزه كأنها كلها بستان واحد. وقد غرس كله في يوم واحد انتهى.

وقال القزويني في عجائب المخلوقات (الأبلة) جانبان شرقي وغربي طوله أربعة فراسخ. أما الشرقي فيعرف بشاطىء عثمان وهو العامر الآن وأما الجانب الغربي فخراب غير أن فيه مشهداً يعرف بمشهد العشار وهو مشرف على دجلة وهو موضع شريف قد اشتهر بين الناس أن الدعاء فيه مستجاب.

وحكي فيه أيضاً أن جنان الدنيا أربعة: أبلة البصرة، وغوطة دمشق، وصغد سمرقند وشعب بوان.

كم منزل في نهرها آلى السرور   بأنه في غيرها لا ينزل
وكأنما تلك القصور عرائس   والروض حلي هي فيه ترفل
غنت فبات الطير في أرجائها   هرجاً يعل إليه الثقيل الأول
وتعانقت تلك الغصون فأذكرت   يوم الوداع وغيرهم يترحل
ربع الربيع بها فحاكت كفه   حللاً بها عقد الهموم تحلل
فتخال ذا عين وذا ثغر وذا   خد يعضض مرةً ويقبل

الخاتمة

وحيث جرى عنان القلم تحت هذه الغاية. وحصل تحت ظلال هذه الراية. وهي إنجاز الأمل وعوده. وإدراك المجد أقصى مقصوده. وابتسام وجه الزمان بالسعادة. وإقبال بريد السعد بالبشارة. وزف عروس الأفراح. من أهل الخير إلى أهل الصلاح. فنوب حامدين الله تعالى على الإتمام. شاكرين لأنعمه على حسن الختام. مصلين على رسوله خير الأنام. وعلى آله مصابيح الظلام. رافعين يد المسألة بذل الاستكانة إلى من لا يتعاظمه شيء أن يوفقنا لإدراك السؤل. وبلوغ المأول. وأن يجعل خاتمتنا إلى غفرانه. ومسكننا بحابيح جنانه. وأن يكتب ما كتبنا في هذه الأوراق في كتب الإفادات المثاب عليها. لا الخرافات المعاقب عليها.

(ثم نقول) اللهم إنا نشهدك أن ما جمعناه في هذا الكتاب أمانة عند كل من نظر إليه وطالع فيه أو كتبه واستكتبه فكل من انتحل منه شيئاً قليلاً كان أو كثيراً ولم ينسبه إلينا أو إلى كتابنا فقد خان أمانته وكان ممن خالفك ولم يؤد الأمانات إلى أهلها فجازه جزاء أمثاله فإنك لبالمرصاد. ومطلع على أعمال العباد. وقد كان الفراغ من جمع هذا الكتاب في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب الفرد سنة (١٠٩٥) خمس وتسعين بعد الألف من الهجرة النبوية والابتداء فيه في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة أحسن الله ختامها.